﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾

سُئل رسول الله كثيراً عن الساعة ، والسؤال ظاهرة صحية إذا كان في الأمر التكليفي ؛ لأن السؤال عن التكاليف الشرعية دليل على أن السائل آمن برسول الله ، وأحبَّ التكليف ، فأراد أنْ يبني حركة حياته على أسس إسلامية من البداية .

فعلى فرض أن الإسلام جاء على أشياء كانت مُتوارثة من الجاهلية فأقرَّها الإسلام ، فيأتي مَنْ يسأل عن رأي الإسلام فيها حرْصاً منه على سلامة دينه وحركة حياته .

لكن أراد الحق سبحانه أنْ يُهوِّن المسائل على الناس ، فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .. ﴿١٠١﴾ ﴾ [المائدة]

وقال رسول الله ﷺ : « دعوني ما تركتكم ، فإنما أُهلك مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم »[1] .

إذن : السؤال المطلوب هو السؤال عن الأمور التكليفية التي تهم المسلم ، حتى وإنْ كانت من أمور الجاهلية ، وقد أقرَّ الإسلام كثيراً منها ، فالدية مثلاً في الإسلام جاءت من جذور كانت موجودة عند الجاهليين وأقرَّها الإسلام ، وقد أمر الله تعالى المسلم بأنْ يسأل عن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٤٧) ، ومسلم في صحيحه (١٣٣٧) كتاب الحج ، وابن ماجه في سننه (٢) من حديث أبي هريرة ، ولفظ الحديث : « ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا » .

مثل هذه المسائل فى قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

أما السؤال عن الساعة ، فالساعة أمر غيبى لا يعلمه إلا الله ، فهو سؤال لا جدوى منه ، لذلك لما سُئِل رسول الله : متى الساعة ؟ قال للسائل : « وماذا أعددتَ لها »[1] فأخذه إلى ما ينبغى له أنْ يسأل عنه ويهتمّ به .

وهذه الآية الكريمة ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣) ﴾ [الأحزاب] جاءت بعد معركة الإيذاء لله تعالى ، والإيذاء لرسوله وللمؤمنين به ، هذا الإيذاء جاء ممَّنْ لا يُؤمنون بالسماء ، ولا يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون بالبلاغ عن الله بواسطة رسوله .

وإيذاء هؤلاء لله تعالى هو فى الحقيقة إيذاء لأنفسهم ؛ لأنه لا يصل إلى الله تعالى ، والله يريد لهم الخير ؛ لأنهم عباده وصَنْعته ، فحين يخرجون على منهجه فإنما يؤذون أنفسهم ، أما إيذاؤهم لرسول الله فقد آذوه ﷺ فى أهله وفى نفسه ، فقد تعرَّضوا له ﷺ بما يتأبَّى عنه أىّ إنسان كريم ، آذوْه بالقول وبالفعل ، ومع ذلك صبر ﷺ ، وصبر أصحابه ، وقد أوذوا فى أنفسهم وفى أموالهم .

والمتأمل يجد أن هذا الإيذاء مقصود وله فلسفة ، فقد أراده الله تعالى ليُمحِّص المؤمنين ، وليرى - وهو أعلم سبحانه - مَنْ يثبت على

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن أعرابيا قال لرسول الله ﷺ : متى الساعة ؟ قال له رسول الله ﷺ : « ما أعددت لها ؟ قال : حبّ الله ورسوله . قال ﷺ : أنت مع من أحببت». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٩) ، والبخارى فى صحيحه (٦١٦٧ ، ٦١٧١) وفى لفظ عند البخارى أن الرجل قال : ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ، ولكنى أحب الله ورسوله . فقال ﷺ : « أنت مع من أحببت » .

الإيمان ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت]

وسبق أن أوضحنا أن الإيمان ليس كلمةً تُقال ، إنما الإيمان مسئولية وعمل ، ولهذا السبب امتنع كفار مكة عن النطق بكلمة الإيمان ؛ لأنهم يعلمون حقيقتها ، وهم أهل بيان وفَهْم للأساليب وللمعانى .

وثبات سيدنا رسول الله وصبره هو والذين آمنوا معه دليل على أنهم أجرَوْا مقارنة بين هذا الإيذاء فى الدنيا من بشر له قدرة محدودة ، وإيذاء الله سبحانه فى الآخرة ، وهذا إيذاء يناسب قدرته تعالى ، ولا يمكن أنْ يفرّ منه أحدٌ .

إذن : نقول : إن للإيذاء فلسفةً مقصودة ، وإلا فقد كان من الممكن أن يأخذ الله أعداء دينه أَخْذ عزيز مقتدر ، كما أخذ قوم نوح بالطوفان ، وقوم فرعون بالغرق ، وكما خسف بقارون الأرض ، لكن أراد سبحانه أن يعذب هؤلاء بأيدى المؤمنين وبأيدى رسول الله ، وربما لو نزلت بهم أخذة عامة لقالوا : آية كونية كالزلازل والبراكين مثلاً ؛ لذلك قال تعالى مخاطباً المؤمنين : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ .. ۝ ﴾ [التوبة]

ثم يُصبِّر الحق سبحانه نبيه ويُسلِّيه : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝ ﴾ [غافر]

إذن : ردُّ الحق سبحانه على هذا الإيذاء جاء على نوعين : نوع فى الدنيا بأنْ ينصرَ اللهُ نبيَّه عليهم ، كما بشَّره الله بقوله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ ﴾ [القمر]

والآخر ردٌّ أخروى يوم القيامة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣) ﴾ [الاحزاب]

والسؤال الذى سُئِلَه رسول الله ﷺ كان متوجهاً إلى أمرين : الأول : إعجازى لأنهم كانوا يعلمون من كتبهم وأنبيائهم بعض الأمور ، فيريدون أنْ يُحرجوا بها رسول الله حين يسألونه عنها ، فلم يجدوا جواباً ، وهم يعرفون أن رسول الله أُميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس أبداً إلى مُعلِّم ، لكن الحق سبحانه كان يُسعف رسوله ويُعلمه الجواب ، فيجيب عليهم الجواب الصحيح ، فيموتون غيظاً ، ويتمحكون فى أيِّ مسألة ليثبتوا لأنفسهم أن محمداً لا يعلمها .

من ذلك مثلاً سؤالهم عن أهل الكهف : كم لبثوا ؟ فأجابهم الله تعالى : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) ﴾ [الكهف] فقالوا : نحن نعلم أنها ثلاثمائة ، فمن أين هذه الزيادة ؟ وجهلوا أن توقيت المناسك الإلهية فى الدين إنما يقوم على التقويم الهلالى لا على حركة الشمس ؛ لأن مُقْتضى ما تعطيه لنا الشمس أن نعلم بها بداية اليوم ونهايته ، لكن لا نعرف بها أول الشهر ولا آخره .

أما التوقيت العربى الهلالى ، فله علامة مميزة هى ظهور الهلال أول الشهر ، وإذا ما قارنْتَ بين التقويم الهلالى والتقويم الميلادى تجد أن كل سنة هجرية تنقص أحد عشر يوماً عن السنة الشمسية ، فالثلاثمائة سنة الميلادية تساوى فى السنة الهجرية ثلاثمائة وتسعة .

فكأنهم أرادوا تجهيل محمد ، فنبَّههم الله إلى أنهم هم الجهلة . وعجيب أن يعترض اليهود على هذا التوقيت ، مع أنه التوقيت العبادى لسيدنا موسى عليه السلام ، ألم يقل سبحانه : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ .. (١٤٢) ﴾ [الأعراف]

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) ﴾ [الكهف] فيه إعجاز أدائى بليغ ، يدل على أنَّ التسْع سنين إنما جاءتْ زيادةً من داخل الثلاثمائة ، وليستْ خارجة عنها .

ثم سألوه ﷺ عن رجل جوَّال ، فأنزل الله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ . (٨٣) ﴾ [الكهف]

فكان ينبغى أن يلفتهم ذلك إلى صدق محمد ﷺ ، وأن يسألوا أنفسهم : من أين له هذا العلم ، وهو الأميُّ الذى لم يجلس مرة إلى مُعلِّم ؟

لذلك قلنا : إن الأُمية عَيْبٌ فى كل إنسان ، إلا أنها كانت شرفاً وميزة فى رسول الله بالذات ؛ لأنها تعنى فى حقِّ رسول الله أنه لم يُعلِّمه بشر كما اتهموه ، إنما علمه ربه .

كذلك كانت الأمة التى نزل فيها القرآن أمة أمية ، وهذا أيضاً شرف فى حقها ، فلو أن هذه الأمة كانت أمةَ علم وثقافة لقالوا عن الإسلام : إنه قفزة حضارية ، لكنها كانت أمة أمية يسودها النظام القبلى ، فلكل قبيلة قانونها ونظامها ، ولكل قبيلة رئيسها ، ومع ذلك خرج منهم مَنْ جاء بنظام عام يصلح لسياسة الدنيا كلها ، إلى أنْ تقوم الساعة ، وهذا لا يتأتَّى إلا بمنهج إلهى .

إذن : الأمية فى العرب شرف ، وعجزهم عن محاكاة القرآن ، والإتيان بمثله أيضاً شرف لهم ، فكوْن الحق سبحانه يتحدَّاهم بأسلوب القرآن دليل على عظمتهم فى هذا المجال ، وإلا فأنت لا تتحدَّى الضعيف إنما تتحدَّى القوى فى مجال التحدى ، فكأن تحدِّى الله للعرب شهادة منه سبحانه بأنهم أفصح الخَلْق ؛ لذلك جاءهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه .

ثم يسأل اليهود رسول الله عن الساعة ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ.. (٦٣)﴾ [الأحزاب] وهم يسألون عن الساعة يعنى : عن يوم القيامة ؛ لأنهم ينكرونه ، ومن مصلحتهم ألاَّ يكون هذا اليوم ، حتى لا يقفوا موقف المساءلة والحساب على ما أجرموه فى الدنيا من ظلم وشرك وعربدة وسَفْك للدماء ، ولَغْو فى أعراض الناس .

ولو بحث هؤلاء قضية القيامة والحساب بالعقل - لا بنصوص القرآن - لَوجدوا أنها أمر منطقى لا بُدَّ أنْ يحدث ، فمثلاً نحن عاصرنا الحزب الشيوعى فى روسيا سنة ١٩١٧ ، ورأينا كيف أخذوا الإقطاعيين والرأسماليين وعذَّبوهم ، وفعلوا بهم الأفاعيل ، وصادروا ممتلكاتهم جزاءً لهم على ظلمهم للناس ، وكنا نقول لهم : نعم هذا أمر منطقى أنْ تقتصَّ من الظالم ، لكن ما بال كثير من الظَّلمة الذين ماتوا أو لم تدركوهم وأفلتوا من قبضتكم ؟

بالله ، لو جاء شخص ودلّكم على مكان أحد الظلمة هؤلاء ، ألستم تحمدون له هذه المساعدة ؟ فكيف به لو قال : بل سأحضره وأحاسبه وأقتصّ منه ، أليست هذه إعانة لكم على مهمة الانتقام من الظالمين ؟

لذلك نقول : كان من الواجب أن يكون الشيوعيون أول الناس إيماناً بيوم القيامة وبالبعث والحساب ليتداركوا مَنْ أفلت من أيديهم .

شىء آخر : ألستم تضعون - فى أىِّ نظام من أنظمتكم الوضعية - القوانين المنظمة ؟ ما معنى القانون : القانون قواعد تحدد للمواطن ما له وما عليه ، أليس فى قوانينكم هذه مبدأ الثواب للمحسن ، والعقاب للمقصر ؟

إذن : كل مجتمع لا بُدَّ أن تكون فيه عناصر خارجة على نظامه ،

وتستحق العقوبة ، فمَن استطاع أنْ يُدلِّس على المجتمع ، وأنْ يدارى جريمته ما حظه من العقوبة ، وقد استشرى فساده وكَثُر ظلمه ؟

إذن : لا بُدَّ أنْ نؤمن بقدرة أخرى لا يَخْفَى عليها أحد ، ولا يُدلِّس عليها أحد ، ولا يهرب منها أحد ، قدرة تعرف الخفايا وتفضحها وتحاسب أصحابها . هذه القضية لا بُدَّ أنْ تسوقك إلى فطرية الإيمان بالله تعالى ، وأنه سبحانه خبير عالم ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي ..(٥٩) ﴾ [الأنعام]

لماذا إذن تنكرون القيامة وأنتم فى أنظمتكم الدنيوية تُجنِّدون الجواسيس والمخابرات ، وتُحصُون هَمْسَ الناس لمعرفة الذين يحتالون فى ألاَّ يراهم القانون ؟ أليس من فضل الله عليكم أنه سبحانه يعلم ما خَفِى عليكم ويقتصّ لكم من خصومكم ؟

فقضية القيامة والحساب واضحة بالفطرة ؛ لذلك تجد أن المنكرين لها هم الذين أسرفوا على أنفسهم ويخافون ما ينتظرهم من العقاب فى هذا اليوم ، ولا يملكون إلا إنكاره وعدم الاعتراف به ، وكأن هذا الهروب هو الحل .

وسورة الكهف تعطينا نموذجاً لهؤلاء ، وهو صاحب الجنة الذى قال : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ..(٣٦) ﴾ [الكهف] بعد أنْ أسرف على نفسه وجحد نعمة الله عليه ، ولما تنبَّه وراجع فطرته قال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً (٣٦) ﴾ [الكهف]

فالتكذيب بيوم القيامة هو الأغلب والآكد والشكّ فى ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى .. (٣٦) ﴾ [الكهف] يعنى : وعلى فرض أنِّى رُددْتُ إلى ربى يوم القيامة فسوف يكون لى عنده أفضل مما أعطانى فى الدنيا ، فكما أكرمنى هنا سيكرمنى هناك .

وهذا اعتقاد خاطيء وفَـهْم أحمق ، فالله تعالى لا يكرم فى الآخرة إلا مَنْ أكرم نفســه باتباع منهجه فى الدنيا ، ومَـنْ لم يكرم نفسه هنا بمنهج الله لا يكرمه الله فى الآخرة .

لذلك كـثيـراً مـا نسـمع : دَعوْتُ فلم يُستـجب لى ، خـصوصـاً السيدات ، جاءتنى إحداهن تشـتكى أنها توجهت إلى الله بالدعاء ، ومع ذلك البنت لم تتـزوج والولد كذا والزوج كذا . فكنـت أقول لها (كـتر خيرك) أولاً أنك عـرفت أن لك رباً تفزعين إليه وقت الشدة كـما قال سبحانه : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ..(٤٣) ﴾ [الأنعام]

إنما أسـألـك : هل أنت أجبتِ اللهَ أولاً فيمـا طلبه منك كى تنتظرى منه أنْ يُجيبك إلى ما طلبتِ ؟ أأجبت الله فى شعـرك هذا ؟ أأجبتِ الله فى (شفـايفك) وتغييـرك لخلْقة الله ؟ فكانت لا تجـد جواباً ، إلا أنْ تقول : والله أنا قلبى (صافى) ولا أؤذى أحداً ... إلخ .

إذن : أخذتم على الله أنكم دعـوتُم فلم يَسْتـجب لكم ، ولم تأخذوا على أنفسكم أنه سـبحانه دعاكم أولاً ونـاداكم فلم تستجيـبوا لندائه ، احرصوا أولاً على إجابة نداء الله ، وثقوا أنه سبحانه سيجيبكم .

نعـود إلى مـا كنا بصـدده من الـحديث عن السـؤال فى القـرآن الكريم ، فسؤالهم عـن الساعة إمَّا ليتـأكد السائل أنها ستـحدث ، وإما لأنه يستبطئها ويريدها الآن .

ومادة السؤال جاءت كثيراً فى كتاب الله ؛ لأن القرآن لم ينزل على رسول الله جـملةً واحدة ، إنمـا نزل مُنجَّماً حَسْب الأحـداث ليعطـيهم الفـرصـة للسـؤال ، وجـاء السـؤال إمـا لتـحـدى رسـول الله ، وإمـا للاستزادة من أحكام الله التى أنزلهـا على رسوله ﷺ ، وهذا جاء ممَّنْ

عشقوا الإيمان ، فأحبوا أنْ تُبنى حركة حياتهم على هدى الإيمان .

حتى المسائل التى كانت لها جذور فى الجاهلية راحوا يسألون عنها ، لماذا ، مع أن الإسلام أقرها ؟ قالوا : لأنهم أرادوا أنْ يَبْنوا أعمالهم على العبادة ، لا على العادة الجاهلية .

والقرآن حينما عرض لهذه الأسئلة قال مرة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] فرسول الله ﷺ حينما سُئل هذا السؤال لم يَقُلْ : هو أذى ؛ لأن الجواب ليس من عنده ، إنما هو مُبلِّغ عن الله ، والله هو الذى يقول ، فقال ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] فكلمة قُلْ هذه من مقول الله تعالى ، وأنا أقولها كما هى .

لذلك نعجب مِمَّنْ ينادى بحذف كلمة (قُلْ) من القرآن ، بحجة أنها لا تضيف جديداً للمعنى ، فى حين أنها دليل على صدْق سيدنا رسول الله ﷺ ، ودليل على أن ما جاء به ليس من عنده ، إنما من عند الله ، وهو مُبلِّغ فحسب ، فربه قال له : قُلْ وهو يقولها كما هى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ .. (٢١٥) ﴾ [البقرة]

لكن قُلْ تأتى مرة مقترنة بالفاء ، ومرة أخرى غير مقترنة بها ، فلماذا ؟ هذا مَلْمح إعجازى فى أداء القرآن ؛ لأن الجواب بقُلْ يعنى أن السؤال قد حدث بالفعل ، مثل ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ..(١٨٩) ﴾ [الحج]

أما الجواب حين يقترن بالفاء ، فإنه يعنى وجودَ شرط ، فالسؤال لم يحدث بالفعل ، إنما سيحدث فى المستقبل ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) ﴾ [طه]

والمعنى : إن سألوك في المستقبل عن الجبال فقُلْ ينسفها ربي نَسْفاً ، فالجواب مُعَدٌّ مسْبقاً لسؤال لم يُسأل بَعْد ، لكنه لا بُدَّ أنْ يُسأل ، وأنْ يقع منهم ، وهذا وجه آخر من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، وإلا فقد كان بإمكانهم ألاَّ يسألوا ، لكن هيهات أنْ ينقض أحد كلام الله ، أو ينقض علمه تعالى .

ما دام الله قال فلا بُدَّ أنْ يقولوا ، وهذه المسألة أوضحناها في قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [المسد]

فحكم الله تعالى على هذا الكافر العنيد أنه سيموت على كفره ، وسيكون مصيره وزوجته النار ، وقد سمع أبو لهب وامرأته هذه الآية ، وعرفوا صدْقها ، لكنه مع ذلك لم يؤمن ولو نفاقاً ، وقد آمن مَنْ هو أشدُّ منه كفراً وعناداً ، أمثال : عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد وغيرهما .

لكن الذي حكم وأخبر أنه لن يؤمن يعلم أنه سينتهي إلى هذه النهاية مهما حذَّره وأنذره ؛ لذلك كان أبو لهب مثالاً لغباء الشرك ، فلو أنه جاء في مَحْفل من محافل قريش بعد نزول هذه السورة ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لأحرجَ رسول الله وكذَّب القرآن ، لكن لم يحدث شيء من هذا ، وما كان ليحدث بعد أنْ قال الله ، مع أنه حُرٌّ مختار .

وفي آية واحدة من كتاب الله وردت الإجابة عن السؤال غير مُصدَّرة بـ (قُلْ) ولا (فقل) ، وهي قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ

عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .. (١٨٦)﴾ [البقرة] ، لماذا ؟

قالوا : لأن السؤال هنا عن ذات الله تعالى ؛ لذلك جعل الجواب منه سبحانه مباشرة بلا واسطة ؛ لأن المقامَ مقامُ سؤال عن قريب مباشر لك ، كذلك جاءتْ الإجابة مباشرة .

هذا عن السؤال ، أما عن الساعة التى سألوا عنها ، فكلمة الساعة حين نطلقها فى هذا العصر نريد بها الآلة المعروفة التى تحدد أجزاء الوقت من ليل أو نهار بالسوية ، فليس هناك ساعة أكبر من ساعة .

والعرب حينما اخترعوا الساعة أو المزولة ، كانت ساعة دقَّاقة بالماء ، وهى عبارة عن خزان يقطر منه الماء قطرةً قطرة ، وكلما نزلت قطرة الماء حرَّكتْ عقارب الساعة بالتساوى ، وسُمِّيت ساعة بالذات ؛ لأن الساعة هى أقرب أجزاء الوقت لليل أو للنهار ، وبعد ذلك عرفنا الدقيقة والثانية والجزء من الثانية .

وقد حرص العرب بالذات على حساب الوقت ، وفكَّروا فى آلة تضبطه ؛ لأن الإسلام يقوم على عبادات موقوتة لا بُدَّ أنْ تُؤدَّى فى وقتها ، من هنا اخترعوا الساعة .

وكأن الحق سبحانه استعار فطرة البشر منهم ، حين سَمَّى القيامة (الساعة) فالساعة التى تنتظرونها هى آلة مواقيتكم فى الحركة ؛ لذلك قال شوقى رحمه الله :

دَقَّاتُ قَلْبِ المَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ   إنَّ الحيَاةَ دَقَائِقُ وثَوانِ

والحق سبحانه يقول : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : القيامة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : ساعتكم وآلتكم التى تعارفتم عليها لضبط الوقت ، فجمع سبحانه بين

الساعة الفاصلة بالقيامة ، وبين الساعة التى هى جزء من الليل ، أو من النهار .

والمعنى : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣) ﴾ [الأحزاب] يعنى : أتوجد أم لا توجد ؟ وإذا كانت تُوجَد ، قالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

الحق سبحانه تكلَّم فى السؤال عن الساعة فى موضعين : هنا ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الأحزاب]

وفى سورة الشورى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) ﴾ [الشورى]

ونلحظ أولاً أن كلمة (قريب) جاءت بدون تأنيث ، والساعة مؤنثة ، فلم يَقُلْ قريبة ، قالوا : لأن المراد وقت قيامها : وما يدريك لعل وقت قيامها قريب . وقال اللغويون[1] : إن (قريب) على وزن فعيل ، وهذا الوزن يستوى فيه المذكَّر والمؤنث ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم]

ثم فى الآية الأولى جاء بالفعل تكون ، فقال : ﴿ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الأحزاب] وفى الأخرى قال : (قريب) لماذا ؟ قالوا : لأن السؤال مرة يكون عن أصل الوجود ، ومرة يكون عن شىء تابع لأصل الوجود ،

---

(١) قال ابن منظور فى (لسان العرب ـ مادة : قرب) : « الواحد والاثنان والجميع فى ذلك سواء . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) ﴾ [الشورى] ذكَّر قريباً لأن تأنيث الساعة غير حقيقى ، وقد يجوز أن يُذكر لأن الساعة فى معنى البعث . وقال ابن السكيت : تقول العرب هو قريب منى ، وهما قريب منى ، وهم قريب منى ، وكذلك المؤنث : هى قريب منى ، وهى بعيد منى ، وهما بعيد ، وهُنَّ بعيد منى » .

وفي الدراسات النحوية نُدرِّس للتلاميذ كان وأخواتها ، وهي فعل ماض ناقص ، يرفع المبتدأ وينصب الخبر ، وقد تأتي كان تامة تكتفي بفاعلها كما في ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ .. (٢٨٠) ﴾ [البقرة] يعني : إنْ وُجِد ذو عُسْرة .

إذن : إنْ أردتَ الوجود الأول فهي تامة ، وإنْ أردتَ وجوداً ثانياً طارئاً على الوجود الأول فهي ناقصة ، كما لو قُلْتَ : كان زيد مجتهداً ، فأنت لا تتكلم عن الوجود الأول لزيد ، إنما تتكلم عن شيء طرأ على وجوده ، وهو اجتهاده ، وهذه هي كان الناقصة ؛ لأن الفعل ينبغي أنْ يدلَّ على زمن وحدث ، والفعل كان دلَّ على زمن فقط ، فاحتاج إلى خبر ليدل على الحدث ، فكأنك قُلْتَ : اجتهد زيد .. في الزمن الماضي .

كذلك نقول في الوجود الأول وكان التامة : « كان الله ولا شيء معه »[1] هذا هو الوجود الأعلى ، فإنْ أردتَ شيئاً آخر مُتعلِّقاً بهذا الوجود الأول تقول : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢) ﴾ [النساء]

فالحق سبحانه في هاتين الآيتين يردُّ على الذين يسألون عن الساعة ، إما لأنهم ينكرونها وجوداً ، أو يؤمنون بها ، ويسألون عن وقتها ، فقال مرة ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الأحزاب] ومرة ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) ﴾ [الشورى]

كلمة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧) ﴾ [الشورى] معنى الدراية : الإعلام ، كما نقول : هل دريْتَ بالموضوع الفلاني ، يعني : علمتَ به .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤٣١) ، والبخاري في صحيحه (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين ، وتمامه : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض » .

وفى علم الأصول يُقسِّمون العلم إلى : علم دراية ، وعلم رواية ، فعلم الرواية كالذى يحفظ القرآن الكريم بالقراءات السبع أو العشر أو الأربعة عشر ، ومع ذلك ربما لا يعرف تفسيره ؛ لأن علْمه بالقرآن علْم رواية فحسب ، أما الذى تخصص فى تفسيره ومعرفة معانيه وأحكامه ، فهذا العلم يُعَدُّ علْم دراية ، فالدراية إذن علْم بالتفصيل ، والرواية علم بالإجمال الكلى .

ومن حكمته تعالى أن يكون حَفَظة القرآن ليسوا من العلماء - إلا فيما نَدُر - لأن العالم إذا ما وقف حفظه عند كلمة معينة ربما دعاه علْمه إلى التصرُّف فيها بلفظ آخر ، كما فى (فتبينوا ، فتثبتوا)[1] مثلاً ، أما الذى حفظ القرآن روايةً فحسب ، فإذا وقف أمام كلمة ناسياً لها ، فإنه لا يتجاوزها حتى يفتح الله عليه بما نسيه ، وبذلك حفظ الله كلامه .

ونلحظ أن هذا الفعل جاء بصيغة المضارع ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] وجاء بصيغة الماضى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ .. (١٤)﴾ [المرسلات] ولكل منهما مدلول ، فساعةَ يقول سبحانه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] يعنى : لا وسيلةَ إلى أنْ يُعْلمك أحد بها أبداً ، لا فى الحال ، ولا فى الاستقبال . أما ﴿وَمَا أَدْرَاكَ .. (١٤)﴾ [المرسلات] فتدل على أنه نفى أنْ يعلمه أحد قبل الآن ، ومن الممكن أنْ نعلمه نحن .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨)﴾ [المدثر]

وقال : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥)﴾ [المرسلات]

---

(١) يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا .. (٩٤)﴾ [النساء] .

وقال : ﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤)﴾ [الحاقة]

وقال : ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤)﴾ [القارعة]

وقال : ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤)﴾ [البلد]

وقال : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)﴾ [القارعة]

وقال : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩)﴾ [الانفطار]

وقال : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)﴾ [القدر]

وهكذا فى كل (وَمَا أَدْرَاكَ) تعنى : أنك لم تكُنْ تعرفه من قبل ، لكن سيخبرك الله به ، أما صيغة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (٦٣)﴾ [الأحزاب] فتعنى أن هذا الشىء المبهم سيظل كذلك مُبْهماً لا يطلعك الله عليه ، ومن هذه الأمور وقت قيام الساعة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)﴾ [الأحزاب]

ولم يخبر الحق سبحانه عن وقتها ؛ لأن الإبهام قد يكون أوضح البيان ، فالله تعالى أبهم عنَّا ساعة الموت ، فلا يدرى أحد منا متى يموت ، وهذا الإبهام جعلك تنتظره فى كل لحظة من لحظات حياتك ، فالحقيقة أنه بهذا الإبهام أوضحه كل الإيضاح .

كذلك أبهم الله مثلاً ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان ؛ لأنه سبحانه لا يريدك مُتعبِّداً ليلة واحدة ، إنما يريدك مُتعبِّداً طوال هذه العشر لتستزيد من الثواب وتحب العبادة لذاتها لا لمجرد الثواب عليها .

وكذلك أخفى الله تعالى عنا وقت الساعة ، لكى نتوقعها فى كل وقت ، وننتظرها كل لحظة ، وهذا أَدْعى للاستقامة والخوف من المعصية ، ومن أدراك أنْ تقومَ الساعة وأنت على معصية الله ، إذن : الإبهام هنا عَيْن البيان .

وهو مقصد من مقاصد الحق سبحانه ؛ ليشيع الحكم فى كُلِّ زمان ، وإلا لو عرف الإنسانُ أجَله لسار فى الدنيا كما نقول (على حَلِّ شعره) يُعربد فيها كما يشاء ، ثم يتوب قبل الموت ؛ لذلك لم يجعل الله تعالى للموت سبباً ، فحين لا ترى سبباً قُلْ مات لأنه يموت ، وصدق مَنْ قال : والموت من دون أسباب هو السبب .

ورحم الله شوقى حين قال فى الموت :

فى الموْتِ ما أَعْيَا وفى أَسْبابه ... كلُّ امْرِى رهن بطىِّ كتَابه
أَسَد لَعَمْرك مَنْ يموتُ بظُفْره ... عنْد اللقاء كمَنْ يموتُ بنَابه
إنْ نامَ عنكَ فكُلُّ طبٍّ نافعٌ ... أَوْ لَم يَنَمْ فالطبُّ مِنْ أذْنَابه

وكثيراً ما نرى المريض يموت بسبب حقنة أعطاها له الطبيب ، أو عملية جراحية غير مُوفَّقة .

وصدق مَنْ قال :

سُبْحانَ مَنْ يرثُ الطبيبَ وطبَّه ... ويُرى المريضَ مصَارعَ الآسينَا

لكن مع ذلك ، يجعل الله لها علامات لُطْفاً بنا ورحمة ، علامات

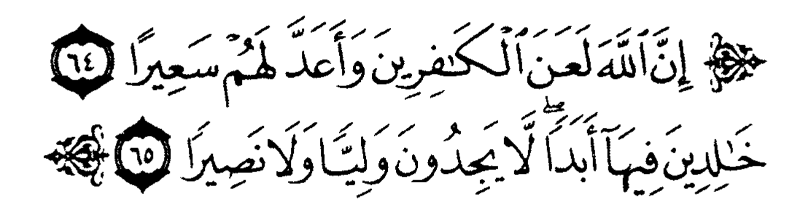
صغرى وعلامات كبرى ؛ لذلك يقول سبحانه عن الساعة : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا .. (١٥)﴾ [طه]

يعنى : قاربْتُ أنْ أزيل خفاءها بالعلامات الصغرى ، والعلامات الكبرى ، لأنها أصبحتْ قريبة ، وقلنا : إن الهمزة فى (أخفيها) همزة إزالة يعنى : أزيل خفاءها ، مثل همزة (أعجم) تقول : أعجم الكتاب أى : أزال عُجْمته وإبهامه بوضع النقط على الحروف ، ومنه سُمِّيتْ الكتب التى تُوضِّح معانى المفردات : معاجم .

وقد تكون الإزالة بالتضعيف مثل (قشَّرت البرتقالة) يعنى : أزلْتُ قشْرتها .

فمعنى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] أى : لا أحدَ سيخبرك بها ولا أنا ، وكما ضَنَّ الحقُّ بعلمها على الخَلْق جميعاً فقد ضَنَّ على نبيه وحبيبه محمد ، ولو كانَ مُخبراً بها لأخبر نبيه ، حتى ولو سراً بينه وبينه ، دون أنْ يُبلِّغ الناسَ بها ، لكن أبداً لا هذه ولا هذه ؛ لذلك كان سيدنا رسول الله إذا سُئِلَ عن الساعة قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :



---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى حديث جبريل أنه قال لرسول الله ﷺ وهو فى هيئة رجل : يا رسول الله متى تقوم الساعة ؟ قال ﷺ : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل ».